

الحيوان بين الغريزة والعقل

الحيوان سبع أو بهيمة، والسباع سبيلها إلى الحياة اللحم، وللبهائم سبيلها إلى الحياة النباتات. ومن السباع ما يصيد بقوته وشراسته كالأسد والنمر والذئب وما إليها. ومنها ما يصيد بحيلته وخبثه كالثعلب، فإنه - على سبعيته - مستضعف جبان ذو مكر وخبث وخديعة، وهو - من أجل ذلك - يجري من كبار السباع ويعايشها.

وبعض الكائنات الحية لبعض، قوت وغذاء، فالذئب يصيد الثعلب فيأكله. والثعلب يصيد القنفذ فيأكله، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها. والأفعى تصيد العصفور فتأكله. والعصفور يصيد الجراد فيأكله. والجراد يلتهم فراخ الزناير فيأكلها. والزنبور يصيد النحلة فيأكلها. والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها. والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها. وهذا من العجب في قسمة الأرزاق.

والحيوان عند أهل النظر جسم نامٍ حساس متحرك بالإرادة. فالدواب على ظهر الأرض والطيور في جو السماء، داخلة في دائرة الحيوان لأنها أجسام تحس وتنمو وتتحرك بالإرادة.

وأهل المعرفة يفرقون بين التصرف الناشئ عن الغريزة، وبين التصرف الناشئ عن العقل. فالتصرف الناشئ عن الغريزة أشبه شيء بتصرف الآلة في عملها، فهو لا يتغيا شيئاً يكون نتيجة لمقابلة وموازنة وتخير، خلافاً للتصرف الناشئ عن العقل. فإنه وليد مقابلة وموازنة واستنتاج.

ونضرب لهذه التفرقة مثلاً تصرف الحيوان الذى كدّه الحر وجهده النظام، فإنه إذا رأى الماء اندفع إليه غير متصور أن فى الماء رياءً من ظمأ وسقاء من غلة، ذلك أن رؤية الماء وحدها فى تصويره هى داعيته إلى الورود، لا يبالى فى سبيل ذلك خطراً أو يتدبر عاقبة.

وأما التصرف الناشئ عن العقل فإن الإنسان يطلب الماء ليروى كما يطلب الطعام ليشبع، فليست رؤية الماء وحدها هى داعيته إلى طلب الماء، ولكن شعوره بالعطش مضافاً إليه أن فى الماء رياءً من ظمأ وسقاء من غلة هو داعيته إلى طلبه الماء وحرصه عليه. فإذا كدّه الحر وكاد يحرق أحشاه النظام، صبر وصابر ثم قابل ووازن واستنتج. فرمى رأى الموت بيد أعدائه خيراً من الموت عطشاً حتف أنفه فقاتل فى طلب الماء فظفر به أو هلك دونه.

ولا ريب أن الله تعالى قد كرم الإنسان وجعله فى الأرض خليفة، وجعل عقله خصيصته التى لا يُشركه فيها خلق من خلق الله.

ولا ينبغى أن يكون معنى ذلك أن غيره من سائر الحيوانات لا يعقل، وإنما معناه أن للإنسان من هذه القوة العاقلة أوفر نصيب وأوفاه، وذلك مامن أجله سخر الله تعالى له مافى السموات وما فى الأرض، ونحن نظلم الحيوان أبلغ الظلم إن نحن سلبناه العقل بجميع صوره، وجعلنا جميع تصرفاته من قبل الفرائز التى لا موضع فيها لمقابلة وموازنة واستنتاج، فإن للحيوان صوراً من التصرف لا يمكن أن تصدر إلا عن مقابلة ومفاضلة بحيث يستحيل حملها على الإدراك الغريزى الذى لا موضع فيه لشيء من الموازنة واستخراج نتائج تدعوه إلى تصرف يبتغى من ورائه ثمرة.

وغاية ما نستطيع أن نقوله فى هذا الباب هو أن القوة العاقلة فى الإنسان تنمو بطول التجارب وتبدل الأحداث، وأنه قادر على التعبير عن اختياره

وتصرفه باللغة التي أقدره الله تعالى عليها، وجعله بها خليفة في أرضه. وإلا فإن ها هنا تصرفات للحيوان لا يمكن فهمها على أساس ماقرّر العلماء بطبائع الحيوان من أن الغريزة لا أثر فيها لحيلة أو موازنة، وأن العقل هو وحده القادر لذلك، والقادر عليه والناهض به. ويتجلى ذلك في الصور التالية التي لا يمكن إلا أن تكون وليدة عقل ما، يقابل ويوازن ويستنتج ويتصرف في حدود هذا الاستنتاج، وآية هذه الذي نقول تلکم التصرفات التالية للإدراك الحيوانى الذى يستعصى اعتباره إدراكًا غريزيًا خاليًا من المقابلة والموازنة والاستنتاج.

الأيل مع الحيات:

فمن ذلك تصرف الأيل مع الحيات.. والأيل - بتشديد آخر حروف الهجاء مكسورة - تيس الجبل، جنس من المعز الجبلية، وعدد سنّ عمره عدد العُقد التي في قرنه، وهو صديق السمك، فهو يمشى إلى الساحل ليراه، والسمك يقرب من البر ليراه أيضًا، والصيدون يعرفون ذلك منها فيلبسون جلد الأيل ليقتصدهم السمك فيصيدوا منه.

والأيل مولع بأكل الحيات، يطلبها حيث وجدها، وربما لسعته فسالت دموعه إلى قرنين تحت محاجر عينيه، فتجمد تلك الدموع حتى تصير كالشمع، فيتخذ الناس منها ترياقًا لسم الحيات، وإذا وُضع على لسع الحيات والعقارب نفع، ولا تنبت للأيل قرون إلا بعد مضي سنتين من عمره، فإذا نبت قرناه، نبتا مستقيمين كالوتدين، وفي الثالثة يتشعبان، ولا يزال التشعب في زيادة إلى تمام ست سنين، فحينئذ يكونان كالشجرتين في رأسه. وهو يلقي قرنيه في كل سنة مرة، فإذا علم أنه غير ذى قرن وأنه عديم السلاح عندما ينصل قرنه، لم يظهر مخافة السباع. فإذا طال مكثه في موضعه سمن. فإذا

سمن علم أن حركته تثقل وأنه يبطئ، فيزيد ذلك في استخفافه وقلة تعرضه. فإذا نجم قرنه لم يجد بداً من أن يعرضه للشمس والرياح، حتى إذا أيقن أن قد اشتد، أكثر المجيء والذهاب إرادة أن يذهب سحبه ويشد لحمه، محتالاً أثناء ذلك للبعد من السباع، حتى إذا أمكنه أن يستعمل قرنيه في النزال والاعتماد عليهما، رجع إلى حالة من مراعيه وعاداته.

والأيل إذا أكل الحيات، اعتراه عطش شديد، وبرح به شوق إلى الماء لا يتمله حق تمثله إلا من يستطيع تمثّل أشواق أنبياء الله إلى الله جل ثناؤه، على ما يقول سيدنا داود عليه السلام: «كما يشاق الأيل إلى حداول المياه، هكذا تشاق نفسى إليك يا الله». ومع ذلك ترى الأيل يتحامى الماء فلا يقترب منه ليشرب، وإنما يدور من حوله، وكأنه يتصبر برؤيته وتشاممه عن معالجته وشربه. وإنما يحجزه عن الشرب، علمه بأن في ذلك عطبه، لأن السم حينئذ يجرى مع الماء ويدخل مداخل لم يكن ليلغها الطعام بنفسه دون الماء.

وربما اصطيد الأيل فيجد القناص رؤوس الأفاعى وسائر الحيات ناشبة الأسان في عنقه وجلد وجهه، لأنه حين يريد أكلها، تبادر فتعضه، فيأكل ما يناله ويفوته ما تعلق به منها بالعض، فتبقى الرؤوس مع الأعناق معلقة عليه إلى أن تنقطع.

ونقول: إن هذا الذى ذكره الجاحظ من تجنب الأيل شرب الماء إذا أكل الحيات، شبيه بما تعارفه قومنا في بلادنا من صعيد مصر، فإنهم يمنعون لديع العقرب الماء، إذ أنه حين تلدغه العقرب يجد بعد فترة من الزمن ظمأً شديداً، ولكن أهله يمنعون الشرب خوفاً على حياته من سريان السم بسبب الماء، كما يفعل الأيل في استناعه عن شرب الماء مع شدة ظمئه إذا أكل

الحيات. فأيهما يا ترى تعلّم من الآخر: الأيائل من الناس، أم الناس من الأيائل؟

ولست تشك - رحمك الله - في أن الأيائل يصدر فيها يصدر عن فطرة، وأن الناس يصدرون فيها يصدر عن تجربة، وصدق الله مولانا العظيم: ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.

الثعلب مع القنافذ:

ومن ذلك أيضاً تصرف الثعلب مع القنافذ، وهو حيوان من أكلة اللحوم ويضرب به المثل في الاحتيال، وأثناء ثعلبية، والذكر ثعلبان مثل الأفصوان لذكر الأفاعي، والعقربان لذكر العقارب، وليس في هذه الألفاظ تنبيه كما وهم بعض أهل اللغة.

وفي كتاب «نهاية الغريب»: أنه كان لرجل صنم، فكان يأتي بالخبز والزبد فيضعه عند رأسه ويقول له: أأطعم - كل - فجاء ثعلبان فأكل الخبز والزبد، ثم بال على رأس الصنم، فقام الرجل فضرب الصنم فكسره^(١)، ثم أنشد يخاطب صنمه:

لقد خاب قوم أملوك لشدة	أرادوا نزلاً أن تكون تُحارب
فلا أنت تُغنى عن أمور تواترت	ولا أنت دُفّاع إذا حلّ نائب
أربّ يبول الثعلبان برأسه	لقد ذلّ من بالث عليه الثعالب

وضاق الرجل بدينه الوثني واعتزم أن يُسلم، وكان طبيعياً أن يذهب إلى رسول الله ﷺ فقال له: «ما اسمك؟» قال: غاوى بن ظالم، قال النبي:

(١) رأينا في يومئذ - من بلاد الهند - أن سدة معابد الأصنام هناك يضعون النفاكة في سلال في تلك المعابد. وهو أمر يدل على تشابه الحياة الوثنية في كل زمان ومكان.

«لا بل أنت راشد بن عديريه»^(١).

هذا، وأما القنفذ فهو حيوان صغير ذو شوك حاد، وهو يلتف ويصير كالكرة وبذلك يقى نفسه خطر الاعتداء عليه، فلا يتمكن منه إلا حيوان ذو حيلة تقوم لحيلته، والتعلب شديد الرغبة في القنفذ، وفي ذلك يقول الجاحظ: سألت القناس: ما رغبة الثعلب في أكل القنفذ وإن كان حشوه شحماً سميناً، وفي ظاهر جلده شوك صلاب جداد متقارب كتقارب الشعر في الجسد؟ قال: إن الثعلب إذا أصاب القنفذ قلبه إظهاره ثم بال على بطنه فيها بين ذنبه إلى فكّيه، فإذا أصابه ذلك البول اعتراه الأسن والدوار والعشى، فأسببط إسباطاً وتدد على وجه الأرض وانبسط، فعند ذلك ينقر الثعلب عن بطن القنفذ، ومن تلك الجهة يأكل جميع بدنه ومسلوخته الذي يشتمل على جلده.

ومن تصرفات الثعلب التي يستعصى اعتبارها صادرة عن غريزة مجردة عن الحيلة ما يرويه الإمام الشافعي - رضى الله عنه - حيث قال^(٢):

«كنا في سفر في أرض اليمن فوضعنا سفرتنا^(٣) لتنعشى، وحضرت صلاة المغرب فقمنا نصلّي ثم تنعشى، وتركنا السفرة كما هي وقمنا إلى الصلاة وكان في السفرة دجاجتان مشويتان، فجاء الثعلب فأخذ أحدهما. فلما قضينا الصلاة أسفنا عليها وقلنا: لقد حرمتنا الثعلب طعامنا. فبينما نحن كذلك تبادل الأسف على فقدان الطعام، إذ أقبل الثعلب وفي فمه شيء كأنه الدجاجة فوضعه فيأدرنا إليه لنأخذه نحسبه الدجاجة قد ردها إلينا، فلما

(١) الحديث في معجم ليفوى وغيره، وفي كتاب «دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني.

(٢) كتاب النسيب لشمس الدين في حياة الحيوان.

(٣) سفره طعام المسافر.

قمنا، جاء الثعلب إلى الدجاجة الأخرى وأخذها من السفارة ومضى. فلما أصبنا الذى قمنا إليه لنأخذه إذا هو ليف قد هبأه الثعلب على هيئة الدجاجة.

نقول: ولولا أن الذى ذكر هذه القصة هو العالم المصرى الثقة الدميرى، ولولا أنه رواها عن الإمام الشافعى، لقلنا حديث مخترع، وقصة من نسج الخيال، لأن تصرف الثعلب على هذه الصورة لا يمكن أن يأتى إلا عن عقل ذكى واسع الحيلة دقيق التدبير.

ومما وقع من فطنة الحيوان مقارباً هذا المعنى ما ذكره القاسم ابن أبى طالب التنوخى الأنبارى حيث قال:

كنت ماضياً إلى الأنبار فى رقعة فيها بيازرة السلطان وقد خرجوا يروضون البزاة وأطلقوا بازياً على درّاج^(١) فطار الدراج إلى غيضة فدخل فيها، وألقى نفسه بين أشواكها، ثم أخذ من ذلك الشوك أصلين كبيرين فى رجله ونام على قفاه ورفع رجله، فاستتر بذلك من البازى. فلما قرب منه البياز طار الدراج فصاده البازى. فقال القوم: ما رأينا قط درّاجاً أحذق من هذا.

ومن أعجب سىء يُروى فى هذا الباب - وفيه من فطنة الطير واعتزازه ما يكاد يكون به إنساناً - ما حدث به القاضى أبو على التنوخى: أن صياداً من أهل أرمينية قال: خرجت إلى الصحراء يوماً فتصبت شبكى وجعلت فيها طائراً مستأنساً، ودخلت فى كوخ تحب الأرض يسترى وجعلت أنظر إلى الشبكة حتى إذا وقع فيها شيء من البزاة أو الصقور أو الشواهين أو غير

(١) الدراج: نوع من طير يدرج فى ميه.

ذلك من الجوارح أخذته، فلما كان قريباً من الظهر إذا رجمة^(١) لطيفة قد طارت على الشبكة فلما رأتها نفرت وترجّلت قريباً منها. فبقيت على الأرض ساعة وإذا عقاب جائز، فلما راها ترجّل معها، ثم إذا طائر في الجو فنهضت الرجمة قبل العقاب وطارت خلف الطائر فلم تراه إلى أن صادته وجاءت به ففسرته وصار لحماً، وأقبلت تأكل، فجاء العقاب؛ وأكل معها، فلما فنى اللحم زاف^(٢) العقاب عليها فضربت وجهه بجناحها، فزاف ثانية فضربه أشد من الأولى، فزاف الثالثة فضربه أشد من ذلك، ولم ترل تضربه بمنسرها إلى أن قتله وطار، فتعجبت من نفورها من الشبكة وقلت: هي كرزة^(٣)، ويجوز أن تعرف الشبكة بالعادة. وطمعت في أن أصيدا لأصيد بها، فبت ليلتي في ذلك الكوخ، فلما كان من الغد رأيتها ترجلت قريباً من الشبكة مثل ذلك الوقت، فنزل إليها عقاب فجلس معها، وعنّ لها صيد فجرت صورتها مع العقاب الثاني كما جرت مع العقاب الأول سواء بلا اختلاف البتة، وطارت فزاد تعجبي وحرصى عليها. وبت ليلتي الثانية في الكوخ، فلما كان اليوم الثالث رأيتها قد ترجّلت على الصورة والرسم، وإذا بعد ساعة بعقاب لطيف الجثة وحشى الريش قد ترجّل، فما مضت ساعة حتى عنّ لها صيد، فهمت الزجمة بالنهوض فضربها العقاب ناحة ضربة كاد يقتلها، ونهض مسرعاً إلى الطيران حتى اصطاد الطائر وجاء به ففسره وطرحه بين يديها، ولم يذق منه شيئاً حتى أكلت الرجمة واستوفت، ثم أكل هو بعدها لحم الطائر الباقي، وفنى، فزاف عليها فزافت له ولم تمنعه، فزافت الثانية فركبها فمكنته حتى سفدها ثم طارا معاً.

(١) الرجمة - بالراء المعجمة - طائر أبيض في حد الحمام لا يأكل الجيف، وهو من الجوارح.

(٢) أراد أن يسفدها.

(٣) كرزة - على مثال سكره - : محالة حذرة.

وبما يدخل من هذا البابا عجباً غريباً لا يستند إلى غريزة آلية بل يستند إلى إدراك ومنطق، ما يرويه على عن الحسن بن واقد القصاب من أن أبا جعفر البصرى - وكان من أهل الخير والصلاح - قال: أضجعت شاة لأذبحها فمرّ أيوب السخيتاني فألقيت الشفرة وقمت معه نتحدث، فوثبت الشاة فحفرت في أصل الحائط ودحرجت الشفرة فألقيتها في الحفرة، وألقت عليها التراب، فقال لى أيوب السخيتاني: أما ترى؟ فجعلت على نفسى عهد الله أن لا أذبح شيئاً من الحيوان بعد إذ رأيت من صنع الشاة بالسكين.

الظربان والضباب:

الظربان - بالطاء المعجمة - حيوان صغير فوق جرو الكلب مُتَيْنَ الريح، قصير اليدين جدّاً، وفيها برائن جداد، وهو طويل الذنب، ليس لظهره فقر، ولا فيه مفصل، بل هو عظم واحد من مفصل الرأس إلى مفصل الذنب، وربما ظفر الناس به فضربوه بالسيوف فلا تعمل فيه حتى تصيب طرف أنفه، لأن جلده شديد الصلابة.

ومن عادته أنه إذا رأى الثعبان دنا منه ووثب عليه، فإذا أخذه تضامل في الطول حتى يبقى شبيهاً بقطعة جبل فينطوى الثعبان عليه، فإذا انطوى عليه نفخ، ثم زفر زفرة ينقطع منها الثعبان قطعاً، وله قوة في تسلق الحيطان في طلب الطير. فإذا سقط نفخ يطنه فلا يضره السقوط.

هذا، وأما الضَّب فهو - بفتح الضاد المعجمة - حيوان من جنس الزواحف غليظ الجسم خشنه، وله ذنب عريض حرش أعقد، يكثر في صحارى الأقطار العربية.

وفى صيد - الظربان الصب - يقول الجاحظ. إن الظربان إذا دخل على

الضب جوف جحره، اغتصبه نفسه، وذلك أنه يعلم أنه أنتن خلق الله فسواً، فإذا دخل عليه سد فُروجه ببذنه، وهو في ذلك مستدير له، فلا يقسو عليه ثلاث فسواتٍ حتى يُعطى بيده^(١١) مستسلماً له فيأكله كيف تشاء

قالوا: وربما فسا الظربان - وهو بقرب من الهجمة باركة -^(١٢) فتتفرق في الصحراء فلا يجمعها راعيها إلا بجهد شديد.

الفأرة والعقارب:

ومن عجيب الإلهام، أنه إذا جمع بعض أهل العيث وبعض أهل التجربة بين العقرب وبين الفأرة في إناء من زجاج، فليس عند الفأرة حيلة أبلغ من قرض إبرة العقرب، فإما أن تموت من ساعتها، وأما أن تتعجل السلامة منها، ثم تقتلها كيف شاءت وتأكلها كيف أحببت.

الأسد والإنسان:

قلما يكون القوى محتالاً، لأن اعتزازه بقوته يجعله لا يهتم باللجوء إلى الحيلة. ومن هنا يكون الحيوان أخطر ما يكون إذا اجتمع له أمران: 'القوة، والحيلة ومثال ذلك ما رواه الجاحظ من أنه سمع حديثاً من سيوخ ملاحي الموصل، ومع هيئته له كان النجوم يتصلون الحديث فلا يسكره مهم أحد، وخلصته أن الأسد ربما تشبث بالحيل الغليظ من حبال السفينة، والملاحون يدونها، فلا يشكون أن الحيل الغليظ من حبالها قد انف على صخرة، أو

(١١) حتى بيده - يستسلم غير مقاوم

(١٢) الهجمة من الابل هي لعدد لعظيمة بها لا يبلغ ثلثة.

تعلق بجذع شجرة وأصلها. فمن عادتهم عند ذلك أن يبعثوا الأول من المدادين ليحل الحبل فإذا رجع إليه الملاح ليمنه، تمدد الأسد بالأرض ولزق بها مغمضاً عينيه كى لا يرى ويصها^(١) وبريقها بالليل. فإذا قرب الملاح منه وثب عليه فخطفه، فلا يكون للملاحين هم إلا إلقاء أنفسهم فى الماء وعبورهم إليه، فرما أكله إلا ما بقى منه، وربما جر فريسته إلى عريسه^(٢) وعرينه، وإلى أجرائه وأشباله. وإن ذلك على أميال.

الأسد والكلب:

قالوا إن الأسد لا يحرص على شىء من اللحمان حرصه على لحم الكلب، بخلاف ما تزعمه العامة من أن لحوم النشاء أحب للحمان إليه، ومن أجل حرص الأسد على لحم الكلب، لا ينفك يطيف بجنبات القرى طلباً لاغتراره وأخذه على غفلة وعدم تنبه، لأن وثبة الأسد تعجل الكلب عن القيام وهو رايض.

وعلة طلب الأسد للكلب - فيما روى الجاحظ - إنما تتراعى فى حنقه عليه، وليس فى أن لحمه أحب للحمان إليه، وذلك أن الأسد يأقى مناقع المياه وسطوط الأنهار فيأكل السراطين والضفادع والسلاحف صفاراً وكباراً، فهو سره من أن يختار لحماً على لحم، وقد مضى بعض الدهاقين^(٣) فى بيان العلة التى من أجلها يطلب الأسد الكلب ويفترسه، فذكروا أن الأسد إذا أراد المنتظر من حير القرية وشائها وسائر دواها، فإن الكلب حينئذ ينبع، فإذا

(١) وبى البرق لمع

(٢) العريس - بورن سكى - الشجر الملتب، يكون مأوى للأسد.

(٣) لدهاقين رؤساء لقرى.

لُجَّ فِي النَّبَاحِ انْتَبِهَ النَّاسُ وَنَذَرُوا^(١) بِالْأَسَدِ، فَكَانُوا بَيْنَ أَنْ يَحْمِصُوا أَمْوَالَهُمْ، وَبَيْنَ أَنْ يُجْهَجُوا بِهِ^(٢) فِيرْجِعُ خَائِبًا.

فَإِذَا أَرَادَ الْأَسَدُ طَعَامَهُ مِنْ حَمِيرِ الْقَرْيَةِ وَشَائِئِهَا وَسَائِرِ دَوَابِّهَا، بَدَأَ بِالْكَلْبِ لِأَنَّهُ حَيْثُذُ يَأْمَنُ الْإِنْدَارَ، ثُمَّ يَسْتَوْفِي عَلَى الْقَرْيَةِ بِمَا فِيهَا، فَإِنَّمَا يَطْلُبُ الْأَسَدُ الْكَلَابَ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ وَلَيْسَ لِأَنَّهُ لَحْمُهُ أَطْيَبُ.

الذرة وخزيتها من الحبوب:

الذرة: النملة الصغيرة الحمراء لا يرجع بها ميزان، ومن قول بعض العلماء: لِأَنَّهُ تَفْضُلُ حَسَنَاتِي سَيِّئَاتِي بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ: أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. وَفِي شَأْنِهَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَانَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْمِيهَا الْجَامِعَةَ الْفَازَةَ أَى الْمُنْفَرِدَةَ فِي مَعْنَاهَا.

رَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ مِنْ حَدِيثِ صَالِحٍ الْمُرَوِّى عَنْ الْحَسَنِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ سَائِلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ تَمْرَةً، فَقَالَ السَّائِلُ: سُبْحَانَ اللَّهِ نَبِيٌّ يَتَصَدَّقُ بِتَمْرَةٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ فِيهَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ كَثِيرَةٍ؟ (يُشِيرُ بِذَلِكَ ﷺ إِلَى الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ). ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَسَأَلَهُ، فَأَعْطَاهُ تَمْرَةً، فَقَالَ: تَمْرَةٌ مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، لَا تَفَارِقُنِي وَاللَّهِ مَا بَقِيَتْ، وَلَا أَزَالُ أَرْجُو بَرَكَتَهَا أَبَدًا، فَأَمَرَ لَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَعْرُوفٍ. وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ لِلجَّارِيَةِ: اذْهَبِي إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَدَعِيهَا تَعْطِيهِ الْأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا الَّتِي عِنْدَهَا. قَالَ أَنَسٌ: فَمَا لَبِثَ الرَّجُلُ أَنْ اسْتَفْنَى.

(١) نذروا به: علموه فحذروهم

(٢) يجرهوه ليكف عنهم

وأعطى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه سائلاً ثمرتين فقبض يده، فقال: سعد: يا هذا إن الله قبل منا مثاقيل الذر.

وسمع هذه الآية الشريفة صمعة بن عقال التميمي عند النبي ﷺ فقال: حسبي لا أبالي أن لا أسمع آية غيرها. وسمعها رجل عند الحسن البصرى فقال: انتهت الموعظة، فقال الحسن: فقه الرجل.

وهذه النملة الصغيرة الحمراء التي لا يرجع بها ميزان تجمع الحب فتخزنه - مضياً مع سنة الأدخار - ثم تفلق الحبة فتأكل موضع القطمير منها لثلاً تنبت فتفسد. فإذا كانت الحبة من حب الكزبرة لم ترض أن تفلقها أنصافاً بل تفلقها أرباعاً، لأن الكزبرة - من بين جميع الحب - تنبت، وإن كانت منفلقة أنصافاً.

ولا ريب أن هذا علم غامض إذا عرفه الشيخ الفلاح المجرب فقد بلغ النهاية في الرياسة.

ذكاء الفصيل:

الفصيل ولد الناقة. وله من التصرف ما يبعد أن يكون غريزة. قيل لأعرابي: أتحنن أن تأكل الرأس؟ قال: نعم. قيل: وكيف تصنع به؟ قال: أبخص عينيه^(١)، وأسحاً خديه^(٢)، وأعفص أذنيه^(٣)، وأفك لحبيه، وأرمى بالمنخ إلى من هو أحوج مني إليه. قيل له: إنك أحمق من الفصيل الذي يولد في الربيع.

(١) بخص عينه: قلعه مع شحمته

(٢) سحاً حله: يسحاه ويسحره إذا قشره وكشطه.

(٣) عفص الأذن: لواها ثم قلعه

قال الأعرابي: وما حُقه؟ «والله إنه ليتجنب العدواء»^(١) ويتبع أمه في المرعى، ويرأوُح بين الأطباء، ويعلم أن حنينها رُغاء، فأين حقه؟

المُكَّاء والثعبان:

المُكَّاء - بضم الميم وتشديد الكاف - طائر مثل القنبرة، سوى أن في جناحيه بلقًا، وسمى بذلك، لأنه يَمَكُو، أى يصفرُّ صغيرًا حسنًا، والمُكَّاء: الصفر.

ومن عجيب الأحاديث في إلهام الحيوان ما حدّث به ابن الأعرابي عن هشام بن مسلم من رهط ذى الرمة قال: أكلت حية بيض مُكَّاء، فجعلت المكاء تشرشر على رأسها وتدنو منها، حتى إذا فتحت الحية فاهها وهمت بالمكاء ألقّت هذه في فم الحية حسكة، ثم لم تزل تلقى إليها حسكة بعد حسكة^(٢) حتى أخذ ذلك بحلقها فماتت، انتقامًا منها لأكلها بيضها.

وفي هذا المعنى يقول الأسدى الديبرى - أبو قبيلة من أسد:

إن كنت أبصرتنى فذاً ومصطلاً فربما قتل المكاء نُعباناً.

يقول هذا الشاعر لمن يتربّص به الدوائر طمعاً فيه لأنه لا يعتزى إلى قبيلة تدافع عنه وتأخذ بثأره: إن كنت ترانى واحداً ليس لى نصير، فقد يظفر الضعيف بالقوى، والقليل الأء ان بالكثير الأعوان، وذلك من طريق الحيلة، فإن المُكَّاء من أصغر الطير وأضعفه، وقد احتال - مع ذلك - للثعبان حتى قتله.

(١) العدواء: غير المطمن من الأرض

(٢) الحسك: سوك يبيب في الصحراء يرعاه لابل

من علمه الخذر؟

قال جالينوس في الأخبار عن معارف البهائم والطير، وفي التعجب من ذلك، وتعجب الناس منه: قولوا لى: من علّم النسر الأتني إذا خافت على بيضها وفراخها الخفافيش، أن تفرش الوكر يورق الدُّلب^(١) حتى لا تقربه الخفافيش في حال. والأطباء والعلماء يعرفون ذلك، ويعجبون منه ولا يتدافعونه مع أن النسور منسوبة إلى قلة المعرفة، والكيس، والفطنة.

وفراخ العقبان:

ومن أعجب ألوان الإلهام ما ألهمه الله تعالى فراخ العقبان التي هي سباع الجوارح، فقد قال ابن الأعرابي وأبو الحسن المدائني: قال رجل من الأعراب: «كان سنان بن أبي حارثة أحزم من فرخ العقاب».

ذلك أن جوارح الطير تتخذ أوكارها في عرض الجبال، حيثما يكون الجبل عموداً رأسياً، بحيث لو تحرك الفرخ لطلب الطعام حين يُقبل إليه أبواه فزاد في حركته شيئاً من موضع مجثمه، لهوى من رأس الجبل إلى الخضيض، وهو يعرف - مع صفه وضعفه وقلة تجربته - أن الصواب في ترك الحركة، فإذا استوى قصب ريشه وأحس بالقوة، طار وقد علمه أبواه الطيران تعليماً، ودرباًه عليه تدريباً.

(١) لدلب - بالضم - سحر بقله ويشع لا نور له ولا سر وورقه كورى النين، وأحد وجهيه

اليربوع مع قومه :

اليربوع والضرس وذو الرميح أساء مترادفة لحيوان طويل الرجلين
قصير اليدين جدًا، ذى ذنب كذنب الجرذ، يرفعه ضعدًا، في طرفه سبه
الوارة.

ولون هذا الحيوان كلون الغزال، ولكنه يسكن بطن الأرض، لتقوم
رطوبتها له مقام الماء، وهو يؤبر النسيم، ويكره البحار أبدًا. ويتخذ جحره في
نشر من الأرض، ثم يحفر بيته في مهب الرياح الأربع، ويتخذ فيها كوى
تسمى: النافقاء^(١) والقاصعاء^(٢) والراهطاء^(٣). فإذا طلبه الصائد من إحدى
هذه الكوى نافق أى خرج من النافقاء، وإن طلب من النافقاء خرج من
القاصعاء وظاهر بيته تراب، وباطنه حفر. وكذلك المنافق، ظاهره إيمان وباطنه
كفر.

قال الجاحظ وغيره: واسم المنافق لم يكن في الجاهلية لمن أسر الكفر
وأظهر الإيمان، ولكن البارى جل وعلا اشتق له هذا الاسم من هذا الأصل
- أعنى من نافقاء اليربوع - لأنه لما أبطن الكفر وأظهر الإيمان وورى
بشيء عن شيء ودخل في باب الخديعة وأوهم الغير خلاف ما هو عليه، أشبه
في ذلك فعل اليربوع.

وفى طبع هذا الحيوان، الذى حشاه الله خبثًا، أنه يظأ في الأرض اللينة
حتى لا يعرف أثر وطنه كما يفعل الأرنب، ثم هو يجتر ويبر، وله كرمش

(١) موسع من جحر اليربوع يرفعه

(٢) ثم الحجر أول ما يبدئ اليربوع في حفره

(٣) التراب الذى يجمله اليربوع على هم القاصعاء.

وأَسنان وأُضراس في الفك الأعلى والأسفل.

وفي اليربوع يقول القزويني: إنه من الحيوان الذي له رئيس مطاع ينقاد إليه. فإذا كان فيها كان من بينها في مكان مُشرف، أو على صخرة، ينظر إلى الطريق من كل ناحية، فإن رأى ما يخافه على قومه، صرَّ بأَسنانه وصَوَّت، فانصرفت اليرابيع إلى أجحرتها. فإن قَصُر بوصفه رئيسًا في ابتغاء مصلحة قومه والمحرص عليهم وحياطتهم، حتى أدركهم صائد فصاد منهم شيئًا، فإنهم يجتمعون على الرئيس فيقتلونه، ويولُّون غيره. ثم إن اليرابيع إذا خرجت لطلب المعاش، فإن الرئيس يخرج أولاً يتشَوَّف هنا وهناك، فإن لم يرَ شيئًا يخافه على قومه صرَّ بأَسنانه صريرًا خاصًا، تعرف به سائر اليرابيع أن الطريق غير مخوف، وأن ابتغاء الرزق مأمون، فتخرج سالمة غائبة.